عودة الناسك إلى شبابه

«تقع ولاية «كالينجا» في الشمال الشرقي من الهند، وعاصمتها «سوبهافاتي». وكانت تلك المدينة –في سالف العصر– تمتاز بجمال مبانيها وثراء سكانها. وكانت مثل عاصمة ملك الإله «أندرا» في السماء لا تأوي بين أسوارها سوى أتقياء الناس. وزاد من البركات التي حبتها الآلهة بها أن تولى حكمها الملك «براديومنا» الذي كان يتمتع بخصال جليلة، فلم يلبث صيته أن ذاع، وأصبح اسمه ملء الأسماع وصار الناس –إذ يرونه– يذكرون على الفور عظمة وعدالة وقوة بأس جده الأكبر الملك «براديومنا!».

وكانت الضرائب لاتجمع في مملكته إلا بالمحبة والرضا، ولا يقدر المستقيم معوجاً إلا عند الإنحناء، ولا يحس أحد بلذعة إلا لذعة الفكاهة والنكات!.

وقد خصص الملك حياً من المدينة لسكني البرهميين، وكان كل منهم يملك في هذا الحي قطعة من الأرض، يتصرف فيها كيفما يحلو له. وكان يعيش في ذلك الحي البرهمي «ياجنوساما». وكان مشهوداً له بغزارة المعرفة وسعة الإطلاع، كما أنه تفقه في علم الغيدا». وكان «ياجنوساما»

يفني الجزء الأكبر من ثروته في ذبائح التقدمات، كما كان يعتبر للآلهة الحق الذي للضيف في أثمن ما يقتنيه. وعاش هكذا متمتعاً بإحترام الجميع. حتى إذا ما بلغ من العمر أرذله، إستجابت الآلهة لصلواته ودعواته التي عاش عمره يرددها، فأنجبت له زوجته ابناً ذكراً، إحتفل الكهنة بمولده إحتفالًا مهيباً، وأطلقوا عليه اسم «ديفاسوما».. ذلك لأنهم توسموا فيه دلائل العظمة والخلود!.

وترعرع الابن في كنف ابيه –ستة عشرة عاماً– إغترف خلالها من كنوز العلم والمعرفة. ولكن الصبي لم يلبث أن أصابته كمى قاتلة فقضى نحبه. إلا أن أباه وامه –الذين كانا يحبانه إلى درجة العبادة– رفضاً تسليم جثته إلى اللحادين ليقوموا بحرقها، بل أبقياها بالمنزل لا يكلان من إحتضانها!.

وذهب وفد من سكان المدينة إلى البرهمي العجوز، وقالوا له: «أيها البرهمي. يا من بلغت أرفع مراتب الحكمة. ألا تعرف زيف هذه الصورة التي ندعوها بالحياة؟ إن ملوك الأرض الذين حشدوا أقوى الجيوش، وأوفرها عدة وعدداً، والذين أحاطوا نفسهم بأجمل المحظيات، وتوسدوا الحشايا المزينة بأغلى الجواهر، وشفوا آذانهم بأعذب الألحان.. أولئك الذين كانوا يعدون أنفسهم آلهة على الأرض، لم ينج أحدهم عن مصيره المحتوم، وإستقرت أجسادهم في النهاية –واحداً بعد الآخر– فوق أرض المحرقة، تتردد من حولهم ولولة أقاربهم ورعاياهم.

ومع ذلك لا يجدر بأحد أن يحزن على موتهم. فكيف إذن يحق لنا أن ننوح على غيرهم؟».

هكذا راح شيوخ البرهميين يتوسلون إليه محاولين أن يقنعوه بالإفراج عن جثة ابنه، حتى إنصاع أخيراً لتوسلاتهم. وعندئذ أقام أهل المدينة مراسم الموت، وحمل أقارب البرهمي جثمان الصبي إلى أرض المحرقة، ينبعهم حشد لا حصر له من الناس يذرفون الدموع الساخنة!.

وكان ناسك كهل قد إتخذ من أرض المحرقة هذه مأوى له، وقد إنزوى فيها داخل كهف صغير، وكان ثقل السنوات الطويلة وما لقي من مصائب الحياة قد قصمت ظهره، فهزل جسده، حتى بدا كأنه تجرد من اللحم، ولم تبق غير شرايينه تشد عظامه وتحول دون إنهياره!.. وكان هذا الناسك الذي يدعى «ياساميفا» شاحب اللون، تكسو جسده ذرات الرماد المتخلفة من الجثث المحترقة، ويعلو هامته تاج من الشعر الأصفر اللون كالشفق.. فكان يبدو صورة حية للإله «سيفا»!.

وكان لذلك الناسك تلميذ يلازمه على الدوام، ويعيش على التسول من أهل الخير، وكان ذلك التلميذ يتصف بالغباء والخبث والغرور، ولا يمل الشكوى من الجهد المضني الذي بذله في أداء مهنته!.

وقد بلغت أصوات النواح والعويل، الصادرة من مشيعي جنازة ابن البرهمي الحكيم، إلى مسامع الناسك القابع في كهفه، فقال لتلميذه: «إذهب وتبين مصدر هذه الأصوات المزعجة التي تصم الأذان والتي لم

أسمع لها مثيلًا من قبل!»، فأجابه التلميذ قائلاً: «ولماذا لا تذهب لتتبين ذلك بنفسك؟ لقد إنقضى موعد تسولي!»، فإستشاط الناسك غضباً وصاح به: «ويل لك أيها الأحمق، الذي لا هم له سوى حشو بطنه، هل إنقضى موعد تسولك ولم يمض على غروب الشمس سوى ساعتان؟». بيد أن الفتى لم يرتدع، وإنما واصل سبابه قائلاً: عليك اللعنة أبها الخرقة البالية من العظام المنتنة! من الساعة لست تلميذك ولست معلمي. إنني سأرحل بعيداً، تاركاً إياك لتتسول لقمتك بنفسك!!».

ثم إنصرف تاركاً للناسك عدة التسول: وهي السلة والعكاز، فلم يجد الناسك بداً من الخروج إلى المكان الذي خصص لحرق جثة البرهمي الشاب، وما وقع بصره على تلك الجثة الغضة، لفتى لم يكد يبلغ سن المراهقة، حتى قرر أن يعيش ما تبقى من حياته في ذلك الجسد.

وعلى الفور شرع في تنفيذ خطته، فإختار لنفسه بقعة منعزله، ليطبق فيها ما تعلمه من أسرار علم «اليوجا».. وهناك أخذ يبكي بحرقة، ثم لم يلبث أن كف عن البكاء ليرقص رقصاً عنيفاً، بخطوات سريعة سرعة البرق، فلم يمض وقت طويل حتى إنتقلت روح الناسك الكهل – المنحرق شوقاً إلى الشباب– من جسده الهامد إلى جسد الفتي النضير. ولم يلبث الفتى أن فتح عينيه ثم نهض جالساً وهو يتثاءب!.

ولما شاهد الحشد الحزين الفتى وقد ردت إليه الحياة هتفوا قائلين: «لتتبارك الآلهة! إنه حي! إنه حي!»..

وتوجهوا إليه يسألونه عن سر المعجزة التي حدثت له، فرفض الناسك المتبحر في علم «اليوجا» أن يبوح لهم بالسر، وفضل أن يختلق لهم قصة خيالية، فقال لهم: «لقد مت وإنطلقت روحي إلى الإله «سيفا». بيد أنه سمح لي بالعودة إلى الحياة، على شريطة أن اعتزل العالم لأكرس حياتي للعلم والمعرفة. لذلك أرجو أن تتركوني بمفردي، كي أتفرغ للمهمة التي ألقيت على عاتقي!».

وهكذا تخلص الناسك من أقارب الفتى الذين غادروا المكان تتنازعهم عاطفتان متضاربتان: الفرح لعودته إلى الحياة والحزن لحرمانهم منه. أما الناسك الذي عاد إلى شبابه فقد رحل إلى مملكة أخرى، ليعاود دراسته وتأملاته!».

***

وعندما فرغ الشيطان من سرد قصته، سأل الملك «تريفيكراماسينا» قائلاً: «أخبرني أيها الملك، لماذا بكى الناسك العجوز في باديء الأمر، ثم رقص رقصاً عنيفاً، وهو يؤدي الطقوس لنقل روحه من جسده القديم إلى جسد الفتى؟ إنني مشوق لمعرفة السبب!».

وخاف الملك أن تصيبه لعنة الشيطان، فأجابه قائلاً: «لقد كان الناسك يقول لنفسه: «ها أنذا الآن أنبذ الجسد الذي عاشرته زماناً طويلًا.. الجسد الذي كان موضع حب وإعتزاز أبي وأمي عندما كنت رضيعاً، الجسد الذي توصلت عن طريقه إلى أسرار علم اليوجا. لقد بكى إذ دار هذا الخاطر في ذهنه.. وذلك لأنه من العسير على المرء أن يمحو من قلبه حبه لجسده!.. لكنه لم يلبث أن رقص طرباً حين حدث نفسه: «إنني لن ألبث أن أنتقل إلى جسد جديد، لشاب في مقتبل العمر. ومن ثم سيمتد بي الأجل بحيث أستطيع أن أحقق نجاحاً أكبر في علم «اليوجا». فمن من الناس لا يتوق إلى الشباب؟».

وما أن سمع الشيطان جواب الملك، حتى إختفى –مرة أخرى– من فوق كتفيه، عائداً إلى شجرة «السيستو». فهرع الملك خلفه، عازماً على بذل جهد أكبر، ليتحقق له الفوز!.. لأنه إلى نهاية الدهر ستظل الغلبة للمثابرين على أكثر الجبال منعة وأوعرها مسلكاً!.

وقبض الملك على الشيطان وأنزله من الشجرة، ثم حمله فوق كتفه!.. وفي أثناء الطريق قال له الشيطان: «أيها الملك. أتراك لم تتعب بعد من الغدر والرواح؟ أما أنا فقد نال مني التعب. لذلك أنصت إلى لأفضي إليك باللغز الأعظم: